المؤسسة الإعلامية ولغة التواصل العربي البث الفضائي... بين الواقع والآفاق

أ. د. عبد الله مليطان

ليبيا

لا شك أن اللغة هي واحدة من أهم الخصائص المميزة للإنسان وتتجلى أهميتها في قدرة الإنسان على وضع الكلمات، وصوغ الرموز التي تمثل ظواهر عالميه الخارجي والداخلي. والاهتمام باللغة يكمن فيما تمثله بالنسبة للأمة من قدرات وإمكانيات، "وفيها تتجلى شخصية الأمة وعبقريتها، فأي استهتار باللغة القومية هو استهتار بالقيم التي يمثلها وجود الأمة"[1] ولهذا نلاحظ أن كثيرا من الصراعات السائدة في عالمنا المعاصر تنصب باتجاه سيادة القوميات بكل ما ينضوي تحتها من مرتكزات ومكونات للهوية، وفي مقدمتها اللغة.

فاللغة هي إحدى مقومات الأمة نظرا لدورها في تجذير الشعور بالانتماء إلى مجموعة لها خصوصيتها الثقافية، وهى إحدى العناصر الأساسية للهوية التي لا يقتصر مضمونها على التضامن المكون للذات الجماعية بل يمتد إلى الفاعلية التاريخية التي تتجلى- عبر اللغة- في المقدرة على المشاركة في الإنتاج الحضري، أي في الإضافة الفكرية، لأن الهوية بناء تاريخي متجدد، وهذا يعني أن اللغة هي في صلب ديناميكية التطور[2] وهي أيضا ليست مجرد وسيلة للتخاطب، وليست وعاء يختزن أفكارنا، ومشاعرنا، ومعتقداتنا، ورسائلنا فحسب بل هي قناة الاتصال بجذورنا الموروثة، وهي ذريعة لأمل الوحدة، وهي بداية من بدايات تأسيس الهوية التي نحن في أمس الحاجة إلى التدثر بها، وسط

حشد من قنوات فضائية متلاطمة متزاحمة بأفكار متباينة، تحشد الإمكانات لتحقيق عنصر الجذب ولاستمرار التبعية الفكرية، و من ثم الحضارية[3].

وإذا كان من الطبيعي أن كل مجتمع ينطوى أفراده على تباين في المدارك العقلية، وفي الطباع النفسية والأحوال المعيشية، فإنه يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني، حيث لم تسلم اللغة منذ البداية من اللحن بسبب عوامل عدة، ربما كان أكثرها وضوحا هو ما حدث لها نتيجة التقارب والاختلاط الذي فرضته ظروف الفتوحات الإسلامية من ناحية، وامتزاج الثقافات من ناحية أخرى بحكم التفاعل، والتلاقح الطبيعي بين الأمم.

وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والمعرفي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الإسلام حتى عهد الفتوح الذي شهد احتكاكا وتفاعلا بين العرب وسائر الأمم حتى إن من الأعراب من كان يتلو آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطئ من جهل بمضمونها، وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المصلين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن، فغضب الخليفة وأزاحه عن الإمامة[4].

ولما كانت ظاهرة اللحن تشكل خطرا كبيرا على اللغة فقد واجهها القدامى بشكل كبير، ولم يسمحوا لها بأن تستمرئ خوفا من شيوعها بين الناس بما يساعد على تفكك وحدة الكيان القومي، ويهدد هويتهم، كما هو الظاهر من موقف عمر بن الخطاب عندما بلغ مسمعه من يلحن في قراءة آيات التنزيل.

وحديثنا عن ظاهرة اللحن هنا التي شاءت مجموعة من الظروف والعوامل أن تنتشر وتتفشى في أوساط المجتمع العربي خلال القرون الأولى وما بعدها لا يعني أننا نريد تسويغ ما يحدث للغتنا الآن عبر قنواتنا الفضائية فالأمر تجاوز مسألة اللحن إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ أصبحت قنواتنا الفضائية لا تلحن فحسب بل تتحدث لغة أخرى قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن بعض ما يبث

عبرها من مواد لا علاقة له بالعربية الفصيحة، حيث إن جل خطابها الإعلامي الذي تقدم به برامجها المباشرة، وأغانيها، وأعمالها الدرامية باللغة المحكية "العامية" التي عادة ما تختلف من قطر لآخر مبحرة من خلال ذلك باتجاه تجسيد الإقليمية والقطرية التي تقود نحو تفتيت الكيان القومي لأمتنا وتجذ ير روح الإقليمية في الوقت الذي كنا نترقب من هذه القنوات - بما تملكه من قدرة على التأثر- أن تعمل على ربط جسور التواصل بين أقطارنا وأن تتجه نحو توحيد صفوفنا وتراصها، لمواجهة ما يحدق بنا من أخطار في زمن العولمة الذي أصبح فيه العالم قرية صغيرة يمكن أن يعرف سكانها كل ما يحدث في أي بقعة من بقاعها في بضع ثوان.

إن التحولات الفكرية والحضارية، والتطورات التكنولوجية الهائلة التي يشهدها التاريخ المعاصر تدفعنا إلى أن نتساءل! هل حققت فضائياتنا شيئا من الدور الذي كان ينتظر منها إزاء اللغة العربية بعد مرور كل هذه السنوات على انطلاقها في هذا العالم الذي تلاشت فيه الحدود، ولم يعد فيه للتاريخ مكان ولا للجغرافية أي أهمية تذكر؟

هذا هو محور هذه الورقة التي أريد من خلالها أن ألامس جوهر هذا الموضوع الحيوي الذي يفرض علينا الواقع معالجته في ظل هذه الظروف الحرجة من تاريخ أمتنا العربية المهددة في أهم مقومات وحدتها من خلال لغة خطابها اليومي الذي يصل بين مشرق الوطن ومغربه، لاسيما ونحن نتابع اليوم على مسرح الأحداث العالمية تلك الفضاءات الكبرى التي تشكل كل يوم لتجمع شعوبا مختلفة مشتتة لا تربطها أي رابطة. غير إن وسائل الاتصال المذهلة استطاعت بمعزل عن كل الاختلافات المتباينة في ثقافتها، ولغتها، وتراثها ومعتقداتها أن تجمع شتاتها، وتوحد كلمتها، وموقفها وقرارها السياسي أيضا.

لا شك أن ثورة الاتصالات التي يشهدها العلم منذ عقود، وما رافقها من سطوة وسائل الاتصال الحديثة، وانبلاج عصر السموات المفتوحة. يجعل من

صناعة البرامج الإذاعية والتلفزيونية مسألة حيوية يتوقف عليها - أحيانا- مصير الأمم ويزداد الأمر خطرا كلما تعلق الشأن بأمم ذات حضارة عريقة قادت العالم، واحتلت موقع الصدارة الحضارية، وأدركت مدارج التفوق والتألق على مدى قرون كالأمة العربية[5] من خلال تمسكها بلغتها العربية الفصيحة وحرصها على استخدام هذه اللغة بما يعزز حفاظها على هويتها وكيانها القومي.

ووسائل الإعلام اليوم ليست بحاجة إلى العاميات لتقوم بهذا العمل، إذ ليس عليها سوى الغوص في أعماق اللغة العربية، واستخراج ما يلزمها لصناعة لغة إعلامية حية، متحركة، تضاهي أكثر اللغات الإعلامية تقدما، مستخدمة مرونة اللغة العربية، وقدرتها الفائقة على التأقلم، وطاقتها الكبيرة التي تختزنها في داخلها.

إن مسؤولية البث الفضائي تستوجب أن تعمل هذه التقنيات الحضارية على توحيد لغة الخطاب العربي، لتتواصل جسور التآخي بين الشعوب العربية إلى مستوى الأحداث التي تعيشها أمتنا العربية في ظل التكتلات العالمية، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بتوجيه لغة الخطاب نحو لغة واحدة، وهي اللغة الفصيحة المشتركة التي تفهم في كل قطر عربي. وعندما نقول الفصيحة هنا، فإننا لا نعني بها تلك اللغة الجامدة المحنطة التي تجعل العربي يعيش بها في عزلة عن عصره، وما استجدت فيه من أحداث، وما يعيشه العصر من تطورات تكنولوجية بل نعني بها اللغة السهلة المبسطة التي تتواءم ومتطلبات الحياة اليومية المعاصرة، وتستلهم كافة المستجدات الحياتية التي تتطور يوما بعد يوما بفعل العقل البشري المستنير. ذلك إن قنوات البث الفضائي بإمكانها اليوم أن تنجز ما لم يكن بمقدور أي وسيلة اتصالية أخرى إنجازه لصالح اللغة الفصيحة، فهي تمتلك الإمكانيات الكبيرة التي تمكنها من شد انتباه المشاهدين، وبإمكانها أن تصل إلى حيث يوجد الإنسان في أي مكان من

العالم، عبر ملامسته أزرار صغيرة يسيرة يستطيع أن يتعامل معها الصغير والكبير حتى وهو مستلق على سريره وفى غرفة نومه.

وهنا نتساءل: إلى أي مدى استطاعت الفضائيات العربية أن تسهم في الحفاظ على اللغة بوصفها إحدى أهم مقومات هويتنا؟ هل أسهمت حقا في الاضطلاع بالدور المناط بوسائل الإعلام دعامة من دعامات جسور التواصل من خلال لغة خطابها اليومي أم أن تعددها، وتنوع برامجها زاد في اتساع الهوة بين اللغة وأهلها؟ وهل استطاعت حقا أن تحد من ازدواجية الخطاب السائد بين الناس "الفصحى والعامية"؟

إن الفضائيات العربية اليوم وهي تبث إرسالها على مدار الأربع وعشرين ساعة باتت تشد مشاهديها بعدد من البرامج المتنوعة، تنحصر في - عمومها- في البرامج المباشرة، والأغاني، والأعمال الدرامية، والإعلانات التجارية مستخدمة من خلالها أحدث التقنيات الفنية والاتصالية وأرقاها ويمكن هنا أن نلقي نظرة على مجمل تلك المواد التي تبث عبر هذه القنوات:

- **أولا- البرامج المباشرة**

تعتمد البرامج الحية والمباشرة في مادتها أساسا على إفساح المجال لعدد كبير من المشاهدين، وذلك من خلال المشاركات الهاتفية التي ترد من مختلف الأقطار العربية، ومن الجاليات العربية أيضا الموجودة في مختلف الساحات العالمية التي تتباين لهجاتها إلى جانب اللغة التي تتزاوج فيها العامية بالكلمات الأجنبية التي تتحدثها الجاليات العربية المهاجرة.

وأغلب هذه البرامج، هي عبارة عن برامج مسابقات تختلط فيها الأسئلة الجادة بالأسئلة التافهة، وهي تستهلك وقتا طويلا من ساعات البث الإذاعي أما البرامج الحوارية فعادة ما يستضاف فيها فنانو الدرجة الثالثة الذين يعتمدون على الهرج والتلاعب بالألفاظ الجوفاء وغالبا ما تلقى عليهم أسئلة مكررة، تدور أغلبها عن أحب الأكلات، وأجمل الألوان، وأنواع السيارات، وعدد الزيجات

والأبناء، وأسباب الطلاق، ونوعيات بدل السهرة أو الفساتين إلى غير ذلك من الأسئلة الباهتة التي لا يجني المشاهد من ورائها أدنى فائدة. وبالطبع فإن لغة الأسئلة والأجوبة - أيضا- هي اللغة المحلية السائدة التي قد لا تمت للعربية الأم بصلة.

▪ **ثانيا الأغاني**: تستحوذ الأغاني على مساحة كبيرة من وقت برامج الفضائيات العربية، وهي- في عمومها- سهلة الألفاظ سطحية التعبير، وغريبة الإيقاع والتعابير، ليس فيها من فن القول أي شيء فتبدو كلمات مرصوفة وخليطا غير متجانس من الألفاظ التي لا معنى لها، والتي يحتاج فهمها إلى أن تعاد مرة واثنتين ولن نبالغ إذا قلنا: عشرة، ناهيك عن موسيقاها الصاخبة إلى حد الإزعاج.

وإذا نظرنا إلى هذه الأغاني التي تعرضها فضائياتنا – للأسف– لوجدنا أن أغلبها باللهجات المحلية الدارجة، حيث استغلت هذه القنوات تقنيات الصورة في انتزاع انتباه المشاهد بما تستعرضه من الجميلات، وهن يتراقصن بأجسادهن وحواجبهن في شكل مثير للغرائز، وجاذب للشهوات.

وفي كثير من المقابلات التي تجريها فضائياتنا مع أبرز نجوم الغناء نلاحظ - وللأسف كذالك- أن كثيرين منهم يفتخرون بأنهم يغنون بالعامية وحجتهم في ذلك أن الغناء بالعامية يكون أقرب إلى الملتقي، وأن التجاوب معه سيكون أكبر. في الوقت الذي نرى فيه أن مئات الملايين من العرب لا يزالون حتى الآن في انسجام مع تلك الروائع الفصيحة التي تغنت بها أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، وغيرهم من عمالقة الطرب العربي.

▪ **ثالثا- الدراما**

تستقطب القنوات الفضائية بتركيزها الكبير على الأعمال الدرامية من مسلسلات وأفلام وسهرات جموعا كبيرا من المشاهدين، بمختلف الأعمار

ناهيك عن المسلسلات المكسيكية المدبلجة التي باتت تغزو فضائياتنا بشكل لافت للانتباه.

وتستحوذ العامية على لغة تلك الدراما، إلى جانب استغلالها للتاريخ والسير وسيلة للإساءة إلى العربيه الفصيحة، على الرغم من التزام بعضها – نوعا ما – بالفصحى، ولكنها تقدم الحوار بمفردات بعيدة عن لازمات العصر التعبيرية مع التجهم والغضب في أكثر الحوارات، والافتعال في مستوى الأداء الصوتي وطريقة أدائه من الممثلين، وهي أمور تقدم اللغة العربية في شكل افتعال لا انفعال مما يقطع وشائج الصلة بينها وبين المشاهدين والمستمعين[6].

- **رابعا- الإعلانات**

على الرغم مما تحققه الدعاية والإعلان عبر البث الفضائي من فوائد إرشادية واقتصادية، وما تحصده من رواج وانتعاش للاقتصاد العربي، فإن لغة أغلب المواد الإعلانية والدعائية التي تبثها الفضائيات العربية هي العامية وبأسلوب سمج جدا مع اعتمادها الكامل على أسلوب الإغراء الرخيص الذي تسخر له أجمل الفتيات الفاتنات لشد الانتباه، ولفت الأنظار، وهي الطريقة التي تسهم بشكل مؤثر في ترسيخ العامية، وتجذير المحلية والقطرية خاصة وأن صياغة المادة الإعلانية عادة ما تعتمد على السجع والجمل الموسيقية التي تشد الأسماع.

وبعد كل هذا. نقول: إن الوقوف على واقع هذه البرامج يفضي بنا إلى نتائج تعكس توجها يتصف باتساع مساحة توظيف اللهجات المحلية، وبداية تقلص منزلة العربية الفصيحة، وإذا استثنينا عينة من البرامج فرضت مادتها ومواضيعها وصفة المشاركين فيها منذ انبعاث البث المرئي بتوظيف اللغة العربية لغة تخاطب فإن نسبة هامة من المضامين المصورة – وقد تتجاوز نصف ما يبث يوميا- تنطق باللهجة "المحلية"[7] على الرغم أنه بإمكان تلك القنوات أن تسهم بجد فعال في اتجاه تعليم العربية وانتشارها بما يتوافر لديها من إمكانيات لشد

الانتباه، ولانتشارها بسرعة فائقة، غير أن الذي حدث هو تساهلها مع العربية مطلقة العنان للعاميات بحجة أن المشاهد يفضل استعمال العامية، وينفر من البرامج باللغة الفصيحة، مع أن الخطاب الإعلامي باستخدامه العربية الفصيحة، يسهم إسهاما كبيرا في تنمية الحس التذوقي بجمالية هذه اللغة أو بالأحرى في "تربية التذوق اللغوي" وهذا ما تسعى إليه جميع الأمم مستخدمة وسائل الاتصال الحديثة[8].

إن التخلي كليا أو جزئيا عن العربية والركون إلى العاميات قضية لا علاقة لها بالمسألة الاتصالية البحتة على صعيد جماهيري، حيث لا تقدم حلولا ناجعة بل تزيد المشكلة تفاقما بمرور الزمن، ذلك لأن معطيات التطور الثقافي المذهل في مجال الإعلام الجماهيري الأرضي، والفضائي خاصة، تتنافى منطقيا وعقليا مع انتشار العاميات، وترسخ صلاحية العربية الفصيحة في الخطاب الإعلامي، وتعمق القناعة بضرورة تعميمها قدر الإمكان في كل الإعلام حاضرا ومستقبلا، لعدد من الأسباب نذكر منها:

1- اجتياز هذه القنوات حاجز الأمية مع فئات اجتماعية لم يستطع الإعلام المطبوع فك عزلتها، ومن هنا فإن استخدامها للغة العربية الفصيحة ضمن أطر متكيفة، من شأنه أن يحقق اقترابا بينها وبين عامة الناس فقد كانت العربية في الماضي مغلقة على قطاعات جماهيرية واسعة، وبفضل هذه الوسائل أصبحت في متناول الجميع، يتعامل معها الأمي وشبه الأمي، وهي بذلك فرصة نادرة لترسيخ لغة الضاد، وحصر العاميات بكل أنواعها وتفرعها في أضيق نطاق ممكن.

2- إن اللغة العربية الفصيحة تعطي امتدادا عظيما للإعلام الجماهيري، لأنها مشتركة بين مئات الملايين من الناس داخل المنطقة العربية وخارجها، في حين إن العاميات تسير به نحو التقوقع والانحسار والمحلية، ولذلك لا يعقل أن يضع الإعلام اللغة العربية، تلك الأداة الثمينة التي تضمن له مساحات

شاسعة من الانتشار موضوع نقاش، في وقت تبحث فيه جماعات إنسانية أخرى عن توحيد وسائل بثها الجماعي، وتحقق انتشار إقليمي وعالمي لإعلامها محاولة استنباط طرائق وتقنيات مختلفة لاجتياز عقبة اللغة[9].

إن اتجاه القنوات الفضائية إلى لغة الخطاب العامي هو تحد صارخ للعربية الفصيحة التي يفترض أن تكون هي لغة الخطاب السائد عبر هذه الوسيلة توثيقا لجسور التواصل بين أقطارنا العربية، وذلك لأنها بالإعراض عن الفصيحة تنحو باتجاه قطع الصلة بالماضي، وهو ما ينشأ عنه تطور اللغات العامية تطورا يزيدها اختلافا، ويقوي عوامل التفرقة الجهوية والإقليمية في العالم العربي ويضعف الوحدة في الشعور والاتجاه[10].

وحول خطورة هذا الاتجاه ينبه الدكتور "شوقي ضيف" بقوله: "لو تمادت الإذاعات العربية في البث بالعاميات لانفكت الصلات التي تربط بين شعوب الأمة، وانعزل كل شعب عربي وعاش وحده، بينما شعوب الغرب في أوروبا المتعددة اللغات تجمع شملها في تكتلات اقتصادية وسياسية واحدة كالإتحاد الأوروبي"، كما يشيد الدكتور "ضيف" بالتزام الأقسام العربية في الإذاعات الأجنبية باللغة العربية الفصيحة على عكس الإذاعات المحلية في العالم العربي ويتعجب من تمسك الأقسام العربية في الإذاعات الأجنبية بالعربية الفصيحة دون أي لحن أو خطأ في حين تقوم الإذاعات في العواصم العربية وطن الإعلام العربي بإشراك العامية مع اللغة الفصيحة في بثها".

ويرى الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه "فصول في فقه اللغة" أنه لا يصح أن نجعل النصيب الأوفر من البرامج بالعامية من أجل الأميين؟ إن ما يحدث من طغيان العامية في الأغاني والتمثيليات والبرامج في الإذاعات العربية، لا نظير له في أية إذاعة أوروبية مثلا، مع كثرة اللهجات المحلية هناك، وما ذلك إلا لأن أصحابها آمنوا بالوظيفة الأولى للإذاعة، وهي التوجيه لا الانقياد"[11].

إن لغة الخطاب الفضائي التي يكمن أن توثق جسور التواصل بين الأشقاء تستوجب صياغة واضحة وسهلة، بمعزل عن التصنع، والمغالاة، والجمل الشعارية المقولبة بحيث يمكنها أن تستثمر إقبال الجماهير على مشاهدة ما تبثه الفضائيات في الارتفاع باللهجات العامية التي تقدم بها بعض القنوات الفضائية برامجها كي تصبح الألفاظ الفصيحة وتعبيراتها الواضحة أكثر تداولا على الألسن تمهيدا لتعميم استعمال اللغة العربية الفصيحة في جميع البرامج، إذ إن هذه اللغة هي الأساس الأول للثقافة العربية، وتعميم استعمالها يمكن الإذاعات المرئية العربية من تجاوز العوائق المحلية فيحقق لها بذلك مخاطبة جمهور أوسع ويجعل برامجها أكثر صلاحية للتبادل بين مختلف البلاد العربية والإذاعات المرئية العربية[12]

إن بعض الداعين إلى استعمال العامية في البث الفضائي يعللون ذلك بأن الواقع يفرض هذا الاستعمال فالجمهور الذي تخاطبه هذه القنوات يضم شرائح أمية وشبه أمية، أبجديا ومعرفيا وثقافيا، وهو ما جعل العربية الفصيحة تشكل حائلا اصطلاحيا، وتواصليا لا يمكن تخطيه إلا باللجوء إلى العاميات التي تضفي على العملية الاتصالية للإعلام المسموع والمرئي وضوحا وحميمية، كما أن أكثر الإذاعات والتلفزات التي تدخل العاميات إلى أغلب موادها تظن أن استعمال العامية هو الوسيلة الأفضل لاستقطاب مزيد من الجمهور الإعلامي العربي، ولعل مصر ولبنان هما البلدان العربيان الأكثر استخداما للعاميات الأولى مستندة إلى تراث سينمائي عريق استطاع نشر هذه اللهجة في كل العالم العربي، والثانية لاعتقادها أن العصرنة والتطور ومحاكاة الأمم الأكثر تقدما تستوجب الابتعاد عن اللغة الفصيحة واللجوء إلى العاميات، على الرغم من أن سائر البلدان المتقدمة تستخدم اللغة الفصيحة فحسب في موادها الإذاعية والتلفزية، بما فيها الأعمال الفنية كالدراما والمسلسلات والبرامج الترفيهية[13].

وبمعزل عن كل ما يقال حول مضار استخدام العامية مع تشديد الحرص على أن تكون العربية هي لغة الخطاب في البث الفضائي فإننا نلاحظ أن المتلقي العربي يواجه في كثير من الأحيان صعوبة بالغة في فهم العامية التي يتحدثها هذا البلد عن عامية أهل البلد الآخر، بما يؤدي بالمتحدث إلى تكرير العبارة التي يقولها عدة مرات أحيانا، وربما يضطر في النهاية إلى نطقها بالعربية الفصيحة كأنما يترجمها، وفي هذا إضاعة للجهد، وهدر للوقت إضافة إلى ما يصاحب ذلك من مشاعر الإحباط القومي[14] ولو جوزنا لقنواتنا الفضائية أن تتجه نحو استخدام العامية، فأي عامية يمكن أن تعتمدها؟ إذ من المعروف أن هناك عاميات ولهجات محلية لا حصر لها في المنطقة العربية، وهي عاميات شديدة الاختلاف فيما بينها. وهل يعني هذا شيئا آخر سوى أن اللغة العربية ستضطر إلى تشتيت نفسها في اتجاهات متعددة، تقودها إلى التبعثر الكامل لأن العاميات مجتمعة ستكون قادرة على ابتلاعها[15].

إن وسائل الإعلام، يجب أن تكون موجهة لا موجهة، وهذا يعني أنها لا يصح أن تتملق عواطف الجمهور، أو تجري وراء نزواته، بل يجب أن توجهه وتأخذ بيده، وتقوده إلى حيث تريد، فلهذا السبب وجدت، ومن أجله تعمل، فلا يصح أن تنسى وظيفتها الأصلية، وتنساق خلف تحقيق الرغبات الجامحة للجمهور[16] وتبني بعض وسائل الإعلام العربية للعامية أمر له خطورته المركبة لسرعة انتشار وسائل الإعلام، ولأن هدم العربية الفصيحة بالعامية قد جاء بمعاولنا ومن داخلنا هذه المرة، وكأننا حفرنا لأنفسنا الخنادق المضادة للتجاوز لتحقيق رغبة استعمراية فشل الاستعمار في الفوز بها سابقا[17] واقتراب الإعلام من عامة الناس ومن الحياة العملية واليومية، لا يعني أبدا هبوط العربية الفصيحة إلى العاميات، وإنما يعني أن يلبي هذا الإعلام حاجات السواد، وأن يتمثل مشكلاته، وأن يسهم في إيجاد حلول لهذه المشكلات، وأن يرتقي به من اللغة العامية إلى اللغة الفصيحة[18].

ونخلص في النهاية إلى أن مستعملي العاميات عبر قنوات البث الفضائي إنما يعانون جهلا وعجزا في إتقان اللغة العربية، والإحاطة بها متوهمين أن العامية أسهل وأقرب، من خلال اختلاطهم بالسواد الأعظم من الجمهور الذي يتحدث بفطرته العامية، إلى جانب عجزهم عن تذوق جماليات العربية وإبداعها وهو ما ينسجم مع مخططات الدوائر الاستعمارية التي لا يروق لها أن يكون هناك ما يربط العرب في رابطة واحدة، مثل اشتراكهم جميعا في التخاطب بلغة واحدة، ناهيك عن الخطر الذي يتمثل في الابتعاد عن التراث بما يجعل الأجيال القادمة في قطيعة مع الماضي وبذلك يسهل تجزئتها وتقسيمها.

وفي الختام أضع أمامكم مجموعة من التنبيهات والمقترحات التي ينبغي أن نهتم بها وهي:

أولا: تنبيهات عامة

1. إن التمسك بحرفية اللغة العربية إلى حد التعصب، ورفض الاتجاه نحو مواكبة اللغة للتطور هو الذي دفع بقنواتنا الفضائية إلى التخلي عن اللغة الفصيحة واستخدام لغة خطاب وسطى.
2. إن اللغة دائما في حاجة إلى التطور لأنها إذا ظلت كما هي عليه في القواميس القديمة قد تصبح مع مرور الزمن عاجزة عن التعبير عن الحياة.
3. إن التساهل في استعمال اللغة الفصيحة لغة للخطاب الإذاعي الفضائي هو الذي أسهم في نشر ما يعرف بالعربية الوسطى التي هي ليست بالعامية وليست بالفصحى والتي شكلت لغة ثالثة تخلط الفصيح بالعامي.
4. ضيق مساحة الممارسة العملية لنطق العربية الفصيحة أسهم في انتشار الأخطاء اللغوية.
5. ضرورة دراسة أسباب توسع اللهجات المحلية على حساب الفصحى واتخاذ الخطوات الكفيلة لحل تلك الإشكالية، ابتداء من الأسرة وانتهاء بوسائل الإعلام الفضائي مع الانتباه إلى أن الغرب قد وظف حركة الاستشراق

من أجل إحياء اللهجات القطرية، والتشجيع على دراستها وتدريسها في المعاهد والجامعات الأوروبية متصورا بأن اللغة العربية الفصيحة سيؤول أمرها حتما إلى الاندثار كما آل أمر اللغة اللاتينية قبلها.

6. يجب أن تدرك مجامع اللغة العربية أن رسالتها ليست السهر على سلامة العربية من التحريف بل أيضا بعث اللغة العربية وإحياؤها لتواكب تطورات الحياة ومستجدات العصر وضروراته.

7. توطيد العلاقة بين الجامعات ومراكز البحث العلمي في الوطن العربي وبين القنوات الإعلامية العربية، والدعوة إلى توحيد جهودها، وتنسيق أعمالها من أجل وضع الخطط والبرامج التي تساعد على تحسين اللغة، والنهوض بها.

8. الدعوة إلى إقامة علاقة حميمية بين الإعلاميين ومجامعنا اللغوية من أجل الحفاظ على سلامة النطق، والابتعاد عن الأخطاء، والترويج لجهود تلك المجامع اللغوية حتى لا تبقى معزولة عن الجماهير.

ثانيا: ملاحظات للفضائيات

1. استخدام اللغة العربية الفصيحة في القنوات الفضائية سيجعل من برامجها برامج يشاهدها الجميع، وسيخلق استخدام هذه البرامج للفصحى مناعة مستمرة تجاه عوامل التجزئة، مع ملاحظة أن أخطاء الإعلاميين لها أخطارها الجسيمة على اللغة، لأن إمكانية انتشارها تتسع باتساع دائرة بث القنوات الفضائية.

2. إبتعاد منشطي البرامج الفضائية عن الفصحى يرجع إلى جهلهم باللغة العربية وبيانها، وقصورهم عن نطقها وإتقانها، والإحاطة بها، إلى جانب عدم قدرتهم على صياغة عبارة فصيحة سلسة يقدمون من خلالها ما يودون قوله للجمهور.

ثالثا: المقترحات

1. إعداد الكوادر الفنية الجادة والقادرة على التعامل مع المشاهد والواعية لمسؤولياتها جيدا إزاء اللغة، بحيث لا تكون مغرقة في الكلمات والتعبيرات الغريبة أو الشاذة التي تنفر المشاهد ولا تستخدم الجمل أو العبارات المسطحة، وألا تعمد إلى ازدواجية الخطاب بين الفصيح والعامي أو تزج بالكلمات الأجنبية التي أصبحت - مع الأسف- من التقليعات اللازمة عند بعض منشطي كثير من البرامج.

2. الانفتاح على التجارب العالمية في مجال الاتصال، والاستفادة من خبراتها في مجال الإخراج وإنتاج الأعمال والبرامج من أجل تطوير الأساليب القديمة التي بات يملها الجمهور، والسعي نحو استثمار ذلك لخدمة اللغة العربية.

3. تعميم اللغة العربية الفصيحة عبر البرامج التي تقدمها القنوات الفضائية يمكن من تجاوز عوائق المحليات مما يجعل تلك البرامج صالحة للتبادل بين مختلف البلاد العربية.

4. تشكيل لجان متخصصة في اللغة الإعلامية بمستوياتها المتنوعة تتبع الأخطاء اللغوية، وتضعها أمام المذيعين للإفادة منها بتقديم مادة خالية من الأخطاء، وذلك بالأسلوب الشائق الذي يساعد على متابعتها.

5. الإفادة من إقبال الجماهير على الدراما والبرامج الترفيهية، بحيث يمكن توظيفها توظيفا سليما يبتعد عن المباشرة والتسطيح والابتذال إلى جانب توظيف الإعلانات التجارية لخدمة اللغة العربية الفصيحة من خلال اختيار الجمل والعبارات السهلة، والسليمة، والجذابة التي تشد المشاهد، وتحقق الهدف من وراء الإعلان.

6. الاهتمام بأبناء الجاليات العربية في مختلف الدول الأجنبية، وذلك بتقديم البرامج التي تخاطبهم مباشرة، وتلامس قضاياهم بما يسهم في ربطهم بهذه القنوات حتى لا يكونوا بمعزل عن لغتهم الأم.

7. إعلان قنواتنا الفضائية "عاما للغة العربية" تتضافر فيه جميعها من أجل الدعوة إلى اللغة العربية الفصيحة وتتحول فيه لغة الخطاب في برامجها إلى لغة فصيحة وأغانيها إلى قصائد مختارة ترتفع عن الكلام الهابط والعبارات المبتذلة.

الهوامش:

1 - إسماعيل الملحم (وسائل الاتصال الحديثة ووحدة الشخصية القومية للأمة العربية)، مجلة الوحدة السنة(5)، العدد(54)، مارس 1989م، ص 129.

2 - عبد القادر بن الشيخ (البرامج الإذاعية والمسألة اللغوية)، مجلة الإذاعات العربية، العدد الثاني 2000م، ص 26.

3 - محمد نجيب التلاوي (مساءلة حضور الفصحى في وسائل الإعلام)، مجلة الإذاعات العربية العدد الثاني، 2000، ص 56.

4 - عمر الدقاق (اللغة المحكية في أدب الجاحظ) مجلة عالم الفكر، المجلد(17)، العدد (2) سبتمبر 1986، ص 164.

5 - أبو بكر بلحاج (اللغة العربية في الإذاعة والتلفزيون بين ثوابت الكيان وثقافة الحداثة)، مجلة الإذاعة العربية، العدد الثاني 2000م، ص66.

6 - محمد نجيب التلاوي، مرجع سابق، 52.

7 - عبد القادر بن الشيخ، مرجع سابق، ص 26.

8 - فريال مهنا (لغة الإعلام العربي بين الفصحى والعاميات) مجلة الإذاعة العربية، العدد الثاني 2000م، ص32.

9 - المرجع السابق31.

10 - أحمد عبد السلام (استكشاف السبل) طرابلس تونس – الدار العربية للكتاب ط بلا 1982م ص108.

11 - رمضان عبد التواب (فصول في فقه اللغة) القاهرة -مكتبة الخانجي، ط1987/3م ص424.

12 - عبد العزيز شرف (وسائل الإعلام لغة الحضارة) القاهرة – مؤسسة المختار ط2 (ب، ت) ص198.

13 - فريال مهنا، مرجع سابق، ص32.

14 - فريال مهنا، مرجع سابق، ص30.

15 - عصام سليمان الموسى (اللهجات العامية في وسائل الإعلام الإلكترونية) مجلة الإذاعة العربية، العدد الثاني 2000م، ص58.

16 - رمضان عبد التواب، مرجع سابق، ص 424.

17 - محمد نجيب التلاوي، مرجع سابق، ص 51

18 - فريال مهنا، مرجع سابق،33.